Revue des lumiers
Revue spécialisée en sceince humaines, pensée et communauté
Publié par centre Al-Isbaah pour l'education, les études civilisationnelles, et stratégique

مجلة مختصة بالعلوم الإنسانية والفكر والمجتمع
مجلة أكاديمية فصلية محكمة
تصدر عن مركز الإصباح للتعليم و الدراسات الحضارية والإستراتيجية

مجلة الإصباح

العدد 03 أغسطس 2019
(online) ISSN 2649-4744

-العقل الجيواستراتيجي بين الجغرافيا الاجتماعية والجيوسياسية (د.جمال محمد الهاشمي)
- الأمن القومي... النهج والهيكلة والمستوى (د. ميثاق بيات الضيفي)
-النسب من قبل الأم (د.م ثرية اقصري)
-االعلوم الإنسانية وسيسيولوجيا العلم المعاصر (.د قاسم المحبشيه)
- التخطيط اللغوي وتنمية اللغة العربية (د. بوجمعة وعلي)
- أثر التدريس وفقاً لأنموذج تحفيز التفكير الذهني في التحصيل الدراسي لدى طلبة قسم الفيزياء -كلية التربية (م.د ايثار عبد المحسن قاسم)
-أسباب تدني مستوى تحصيل تلاميذ مرحلة التعليم الأساسي في تعلم اللغة الإنجليزية من وجهة نظر معلمي المادة بمحافظة عدن (د.عبد السلام عوض أحمد لبهص ، د. ادريس سلطان أحمد مقبل)
-الادارة المتكاملة للموارد المائية لحوض دلتا تبن (د.م حسن احمد حنبلة)
- معايير مقترحة لإعادة توظيف المباني التراثية في منطقة الخرطوم الكبرى؛ كمدخل للحفاظ عليها (د.ندى محمد رمضان عبد الحي)
- الحسّ الوقائي في تراث العمران الصحراوي الجزائري: قصر تمنطيط بولاية أدرار نموذجا (السيد عبد الحميد بن حاج خليفة)

العلوم الإنسانية وسيسيولوجيا العلم المعاصر

The humanities and sociology of contemporary science

أ.د قاسم المحبشي

جامعة عدن

Prof. Qassem Al-Mahbashi

Aden University

تمهيد:

شهد العالم المعاصر منذ منتصف القرن العشرين أحداثاً عاصفة ومتغيرات متسارعة على مختلف الأصعدة (الحضارية والثقافية والمدنية)، متغيرات لم يشهد لها التاريخ مثيلاً من حيث جدتها وسرعتها وأثرها وقوتها الصادمة، ووسط تلك الأحداث والمتغيرات العاصفة أخذ العلماء والمفكرون يبحثون عن تفسير معقول لما يعتمل في الواقع ويدور في عالم جُنَّ جنونه وأصاب الناس جميعاً بالدهشة والذهول ( ). ولما كان العلم بكل مستوياته وتجلياته الابستمولوجية، والسوسيولوجية، يعد الظاهرة الأبرز في العصر، عصر العولمة والعلم والثورة العلمية بامتياز، فقد استقطب العلم جلّ اهتمام الفلاسفة والعلماء وأثار دهشتهم ودفعهم إلى إعادة التأمل والتفكير والتساؤل فيه بوصفه موضوعاً كلياً لعدد واسع من أنساق الابستيمولوجيا المعاصرة (فلسفة العلم، وتاريخ العلم، وسوسيولوجيا العلم، والانثربولوجيا الثقافية، وعلم نفس العلم ، والعلم المقارن، والميثودولوجيا (علم المناهج)، وفلسفة اللغة، والهرمونطيقا، والسبرناتيك، وأخلاقيات العلم. فضلاً عن أنساق المعرفة الجديدة الأخرى ومنها، الدراسات الثقافية والنقد الثقافي والدراسات النسوية في فلسفة العلم وتأنيث العلم، وأدب الخيال العلمي ... إلخ.

ما العلم؟ وما منهجه؟ وما تاريخ العلم؟ وكيف يمكن فهم وتفسير بنيته وديناميته وصيرورته؟ وما علاقة العلوم الطبيعية بالعلوم الإنسانية والاجتماعية؟ وما مكانة العلوم الإنسانية ووظيفتها وقيمتها وأهميتها ومستقبلها؟ وما هي المؤسسة العلمية؟ ومن هو العالِم؟ وما الأدوار الاجتماعية التي يمارسها العلماء؟ وما هي محددات الجماعة العلمية؟ وكيف يمارس العلماء نشاطهم؟ وما هي أنماط علاقاتهم؟ وما المعايير التي يلتزمونها؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تضعنا في قلب المشكلة التي واجهتها العلوم الإنسانية والاجتماعية ومازالت تواجهها في سياق سوسيولوجيا العلم المعاصرة، بوصفها منظوراً جديداً في بحث ودراسة الخطاب العلمي بما ينطوي عليه من أنساق، وعناصر، وأفعال وتفاعلات، وعلاقات، وممارسات، وأدوار والتزامات، وقيم وقواعد، ومؤثرات، وبنيات، مادية ورمزية، داخلية وخارجية, فالعلم وفق هذا المنظور ليس مجموعة معارف ولا تقنيات وممارسات ... إلخ، بل هو مؤسسة بالمعنى الفوكوي للكلمة(نسبة إلى ميشل فوكو)( )، ذلك هو السؤال المشكل الذي نحاول مقاربته هنا.

وتأتي أهمية موضوعنا، بما ينطوي عليه من راهنية أبستمولوجية، وقيمة منهجية، بوصفه محاولة لتسليط الضوء على وضع العلوم الإنسانية والاجتماعية اليوم والإحاطة بأبعادها وأولياتها الداخلية والخارجية من زاوية نظر سوسيولوجية نقدية، بهدف تعيينها في

خارطة الإبستمولوجيا المعاصرة، والتوفر على فهم أوضح لطبيعة التحديات التي تجابهها والإحاطة الممكنة بمشكلاتها الحيوية واستشراف مستقبلها.

وذلك انطلاقاً من الفرضية التي ترى: أن مسألة نمو وتقدم العلوم الإنسانية والاجتماعية هي مسألة ليست ابستمولوجية أو مهنية خالصة فحسب، بل مسألة سوسيولوجيا، حضارية ثقافية عامة، مرهونة بسياق مجتمعها المتعين وصحته وقدراته وفرصه وممكناته الواقعية والافتراضية التي من شأنها أن توفر وتؤمن البيئة الحاضنة والراعية والدافعة لنموها وازدهارها أو العكس.

منهجية البحث:

وسوف نقارب موضوعنا من منظور منهجي سوسيولوجي نقدي يستلهم أدوات منهج سوسيولوجيا العلم: الأسس الثقافية للخطاب العلمي، والدور الاجتماعي للعالِم، ومعايير العلم، والجماعة العلمية أو المؤسسة العلمية وغيرها، بالاستفادة من منهجية الممارسة الانعكاسية، تمكننا من إحداث قطيعة فكرية بين عواطفنا ومواقفنا، واتجاهاتنا وانتماءاتنا المهنية وتخصصاتنا الأكاديمية, ورؤيتنا لموضوع بحثنا الذي ليس له من هدف غير معرفة الحقيقة المحتملة على الدوام. في ضوء المفاهيم المفتاحية (العلم, المنهج العلمي, العلوم الإنسانية، سوسيولوجية العلم المعاصر, المؤسسة الأكاديمية، الدور الاجتماعي للعلماء، وغير ذلك من المفاهيم المساعدة).

الإطار المرجعي:

على مدى السنوات الماضية حظي العلم والمعرفة العلمية عامة والعلوم الإنسانية والاجتماعية خاصة باهتمام مضطرد من قبل عدد واسع من الباحثين، وهذا ما أفضى إلى تراكم تراث زاخر من الدراسات والإصدارات المتنوعة يمكن الإشارة إلى بعضها: كارل بوبر: منطق الكشف العلمي، وعقم المذهب التاريخي،مناهج العلوم الاجتماعية, والمجتمع المفتوح وأعداؤه, وأسطورة الإطار. وجوستاف باشلار، الفكر العلمي الجديد, والعقلانية التطبيقية. وبول ريكور: الخيال الاجتماعي بين الأيديولوجيا واليوتوبيا.و ج . كراوثر، موجز لتاريخ العلم. وجون ديزموند برنال، العلم في التاريخ. وبرسلوماكينوفسكي، السحر والعلم والدين. وجوزيف نيدهام، العلم والحضارة في الصين. وروبرت ميرتون، العلم والتكنولوجيا والمجتمع في بريطانيا في القرن السابع عشر، وخليقة العلم. وجوزيف بن دافيد، دور العالم في المجتمع. وهربرت بارفيل، أصول العلم الحديث. وألفن جولدنر، الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي. وروي ياسكر، العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية: الاتجاه الواقعي. وجيوفاني بوسينو، نقد المعرفة في علم الاجتماع. وكارل منهايم، الأيديولوجيا واليوتوبيا. وأنتوني جبدنز، قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع. وكاستورياديس: تأسيس المجتمع تخيليًّا. وبول فيين، أزمة المعرفة التاريخية : فوكو وثورة في المنهج. وأيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس. وفراسو اليوتار، الوضع ما بعد الحداثة: تقرير عن المعرفة. وتوبي أ . هف، فجر العلم الحديث: الغرب والإسلام والصين. وبيير بورديو، بعبارة أخرى محاولة باتجاه سوسيولوجيا انعكاسية. ويان سبوك، أي مستقبل لعلم الاجتماع؟: في سبيل البحث عن معنى وفهم العالم الاجتماعي. ويورجن هابرماس، المعرفة والمصلحة. ويمنى طريف الخولين مشكلة العلوم الاجتماعية:تقنينها وإمكانية حلها. وميليسا هاينز، جنوسة الدماغ، وأنثوية العلم. وجيروم كيغان، الثقافات الثلاث: العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانيات في القرن الحادي والعشرين. وجيمس تريفيل، لماذا العلم؟. وإبراهيم عبد الرحمن رجب، العلوم الاجتماعية الوضع الراهن وآفاق المستقبل. وتقارير اليونسكو عن الفجوة المعرفية والعلوم الإنسانية والاجتماعية، وغير ذلك من الإصدارات.

تحديد المفاهيم وتعريفها.

العلوم الإنسانية والابستومولوجيا الفلسفية .

أزمة العلوم الإنسانية وسوسيولوجيا العلم المعاصر .

المنظور السوسيولوجي النقدي والعلوم الإنسانية.

الخاتمة.

أولا: تحديد المفاهيم وتعريفها.

تحديد المفاهيم وتعريفها هو الخطوة المنهجية الأولى في الدراسات الإنسانية والاجتماعية؛ ذلك كونها مفاهيم ملتبسة وغامضة على الدوام، لأن موضوعها ذاته متحرك ومتغير باستمرار، " وأشد الأخطار هو خطر الكلمات التي تستثير في أذهاننا جواهر أو ماهيات فكرية مشخصة زائفة تملأ التاريخ كائنات من الأسماء الكلية المختلقة لا وجود لها في الواقع"( ). إذ أن المفاهيم لا توجد في فلك الأفكار ومدونات اللغات وحسب، بل هي كائنات تاريخية شديدة الارتباط بسياقاتها الاجتماعية الثقافية المشخصة، ولكل مفهوم مكان وزمان ولادة، وسياق نمو وتجربة وخبرة ممارسة، وعلاقات قوة، ونظام خطاب ومدونة لغة، وفضاء فكر وحساسية ثقافة، وحقل تأويل وشفرة معنى وأفق تلقي .. إلخ.

مفهوم العلم Science:

مازال مفهوم العلم محاطاً بكثير من اللبس والغموض والتشويش، وذلك بسبب الخلط المضطرب بين الاستعمالات المختلفة للكلمة.يورد ابن منظور، "علم: من صفات الله عز وجل العليم والعالم والعلام .. والعلم نقيض الجهل، علم علما، ورجل عالم وعليم من قوم علماء ( ). والعلم بمعنى (الفقه والتفقه)، فالعلم بالشيء هو الفقه فيه. والعلم بمعنى (اليقين)، وهكذا تعددت معاني كلمة (علم) في الثقافة العربية الإسلامية لتشمل حقولا كثيرة ودلالات مختلفة، منها: العلم بمعنى التأويل والإيمان،وقد ألمح ابن خلدون في تصنيفه للعلوم إلى "أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليماً هي على صنفين: العلوم الشرعية النقلية والعلوم العقلية" ( ). ورغم ما تضمنه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من إشارات إلى العلوم العقلية؛ مثل (تعليم اللهِ آدمَ الأسماء كلها)، وتعليم (سيدنا داؤود استعمال الحديد)، وحديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – في تأبير النخيل (أنتم أعلم بأمور دنياكم)؛ إلا أن توبي أ. هف، ذهب إلى "أن بنية الفكر والعواطف في الإسلام في القرون الوسطى بشكل عام كانت ذات طبيعة جعلت طلب العلوم العقلية وعلوم الأولين أمراً يثير الشكوك" ( ). وفي عصرنا الراهن مازال الجدل محتدماً بشأن كلمات (العلم والعالِم والعلماء) التي نطلقها على كثير من أنماط المعرفة لا يشملها مفهوم (Science) العلم بالمعنى المتواضع عليه في الابستيمومولوجيا المعاصرة. كتب ريموند وليامز: "قد تبدو كلمة Science)) علم – الآن – بسيطة جداً، ولكنها خضعت لمسار تاريخي واجتماعي طويل حتى استقر معناها منذ منتصف القرن التاسع عشر حينما صرّح عالم الكيمياء الإنجليزي هول عام 1840 معربًا عن قلقه بشأن معنى العلم والعلماء، قائلا: "نحن في أمس الحاجة إلى اسم يصف من يدعي العلم Science بشكل عام بما يجعلنا نصفه بالاسم scientist عالِم"، ويضيف وليامز: "بحلول عام 1867 تم العثور على الوصفة الواثقة الواعية المستوعبة لجدة الاستعمال والمعنى الذي منحه إياها الإنجليز بمعنى علم مادي وتجريبي مستبعداً الثيولوجيا والميتافيزيقا"( ). على هذا النحو اكتسب مفهوم العلم

مسارًا متعرجًا في تحولات المفهوم وسياقات المعنى؛ ففي بواكير العصر الوسيط "كانت الكلمة scientia)) تطلق على المعرفة النسقية المكتسبة بالدراسة المنتظمة، وقد استخدمها فرنسيس بيكون بمعنى المعرفة التي تضم التاريخ والفلسفة ومبادئ الأخلاق واللاهوت ( )، تمييزاً لها عن كلمة (art) التي تعني فن بمعنى مهارة وحرفة. وقد ظلت الكلمة تطلق على حقل الدراسة النظرية النظامية حتى أواخر القرن التاسع عشر؛ إذ جرى استبعاد مجالات معرفية أساسية وأصيلة مثل الفلسفة والأدب والتاريخ واللاهوت لينحصر معنى الكلمة على العلوم الطبيعية التجريبية (الفيزياء والكيمياء والأحياء) وهذا هو ما حفز عالم الاجتماع الفرنسي أوجست كونت إلى محاولة تأسيس علم اجتماع وضعي يستلهم منهج العلوم الطبيعية. وهكذا تم تصنيف العلوم في الابستيمولوجيا المعاصرة إلى: العلوم الطبيعية البحتة بوصفها علوماً حقيقة، والعلوم الإنسانية الاجتماعية وتأتي في المرتبة الثانية في سعيها إلى اكتساب جدارة المعرفة العلمية، والعلم هو نوع من المعرفة، لكن ليس كل معرفة علماً. ويذهب روبرت موتون إلى "أنه إذا كان مصطلح (علم) يعبر عن حقائق مختلفة للغاية، فإن علم اجتماع العلم يهتم بالصيغة التي ترى العلم بوصفه مجموعة قيم ثقافية تؤثر في النشاطات المعرّفة أو (المصنفة) علمية" ( ). وفي قاموس أكسفورد المختصر جاء: "العلم هو ذلك الفرع من الدراسة الذي يتعلق بنسق مترابط من الحقائق المبرهنة، بصيغة قوانين عامة، ومسلمات مستخلصة عبر طرق ومناهج موثوق بها، لاكتشاف الحقائق الجديدة في ذات التخصص" ( ).

في ضوء ما تقدم ولأغراض هذا البحث يمكن تعريف العلم : بمنظومة الأفعال والأقوال التي يمارسها العلماء في بحث ودراسة الظواهر الطبيعية والإنسانية ومحاولة تفسيرها وفهمها والكشف عن حقائقها المحتملة على الدوام، وذلك باستعمال مجموعة من الطرق والأدوات المنهجية التجريبية والاستدلالية العقلانية بالتزام قيم معيارية موضوعية ومجردة قابلة للقياس والنقد والتقييم.

مفهوم العلوم الإنسانية Human Science:

مصطلح العلوم الإنسانية يتضمن العلوم الاجتماعية "فالكثيرون وعلى رأسهم كلود ليفي شتراوس, يطابقون بين مصطلحي (Human Science وSocial Sciences). وترى يمنى طريف الخولي أن مصطلح العلوم الإنسانية الذي بدأ يسود في السنوات الأخيرة يبدو أصوب؛ لأن الإنسان هو المحور لهذا النمط من الدراسات ( ). وربما بدأ التمييز بين العلوم الاجتماعية والإنسانية على نحو جاد في السنوات الأخيرة، وهذا هو ما فعله عالم النفس الأمريكي جيروم كيغان في ،الثقافات الثلاث؛ إذ حاول تحديد نطاق كل من العلوم الثلاثة: الطبيعية والاجتماعية والإنسانية في جملة من المحددات والسمات في قائمة بيانية أسماها (مقارنة الثقافات الثلاث من خلال تسعة من النطاقات). إذ حدد العلوم الاجتماعية بعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأنثربولوجيا وعلوم اللغة وعلم السياسة وعلم الاقتصاد، أما العلوم الإنسانية فهي بحسب زعمه تضم الفلسفة والتاريخ والنقد الأدبي والجمالي والدراسات النسوية وعلم الأخلاق والدراسات الثقافية ( ). تجدر الإشارة إلى أن جيروم صنف العلوم من منظور علاقاتها بالمنهج العلمي؛ إذ "يتفاوت العلماء في درجة اعتمادهم على ثلاثة أنماط من الهياكل العقلية حال وصفهم أو تفسيرهم للظواهر أيًّا كانت: المفاهيم والمعادلات الرياضية، وشبكات التعبير اللغوي، والوصف القائم على تنظيم المدركات الحسية" ( )، وتلك هي الأدوات المنهجية التي يستعملها كل من أراد أن يشتغل بأحد العلوم الثلاثة.

في الوقع لا توجد حدود قطعية بين أنساق المعرفة العلمية الثلاثة، فجميع العلوم هي إنسانية في آخر ألمطاف بمعنى أنها من إبداع الإنسان ومن أجل سعادته، وربما كان التمييز بينها يأتي لضرورة منهجية.وبالخلاصة يمكن تعريف العلوم الإنسانية بأنها: تلك العلوم

التي تهتم بدراسة الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً وتضم العلوم الاجتماعية والنفسية والتربوية والاقتصادية، فضلا عن الفلسفة والأنثربولوجيا والتاريخ والسياسة والقيم واللغة والعلم والدين والأدب والثقافة عامة .

مصطلح سوسيولوجيا العلم المعاصر:

مصطلح سوسيولوجيا العلم أو علم اجتماع العلم، تطور في الثلث الأخير من القرن العشرين عما كان يعرف بالإبستيمولوجيا وذلك أثر الثورة المفاهيمية التي شهدها مطلع السبعينيات. ويعد روبرت مرتون المؤسس الضمني لهذا النسق المعرفي الحديث في كتابه (البنية المعيارية للعلوم) 1942 ( ). هذا فضلا عن الآفاق الجديدة التي تفتحت على أيدي فلاسفة العلم ما بعد الوضعية ، أمثال كارل بوبر وتوماس كون وإمرى لاكاتوش وباول فيرابند؛ إذ شكل هؤلاء الأربعة معا بصياغات متنوعة معالم فلسفة العلم في الثلث الأخير من القرن العشرين، وهذا ما أفضى إلى تغير ثورى في النظرة إلى العلم بوصفه صنعة إنسانية وإبداعاً إنسانياً، ونشاطاً إنسانياً، وفعالية إنسانية، ومغامرة إنسانية، أو كما أكد مارجوليس في كتابه، علم بغير وحدة : إصلاح ذات البين للعلوم الإنسانية والطبيعة "أن مشاريع العلم هي بصورة حاسمة إنجازات إنسانية، والصفة الجذرية للعلم بعد كل شيء أنه نشاط إنساني .. لذلك فكل العلوم هي علوم إنسانية من زاوية إنجازها الفعلي، فلا يمكن تعيين خصائصها بمعزل عن ملامح الثقافة الإنسانية والتاريخ الإنساني واللغة الإنسانية والخبرة الإنسانية والاحتياجات والاهتمامات الإنسانية" ( ).

إن تأكيد البعد السيوسيولوجي للعلم، ونسبية الحقائق العلمية، ومبدأ الكشف، وقوة الخيال والمغامرة، وأسبقية الفروض الحدسية وحيويتها قد أفضى إلى إعادة الاعتبار للعلوم الإنسانية والاجتماعية. ويقر بيير بورديو بفضل الأفكار التي طرحها توماس كون، بقوله: إنني أنسب الفضل لتوماس كون، في أهم جزء قدمته فيما يتعلق بمنطق الممارسة والديناميات التي تحتويها. ويقدم توماس كون نظرية في الممارسة العلمية تثير أكثر الأسئلة إشكالية بالنسبة لسوسيولوجيا العلم، والمتعلقة بالتغير، كيف يحدث وما هي آلياته، وما هي الشروط التي ينشأ فيها العلم الجديد أو النموذج الجديد، وما هي التأثيرات الخارجية المفروضة على المجال العلمي ( ).

في ضوء ذلك يمكن لنا استخلاص تعريف علم اجتماع العلوم: بأنه ذلك الفرع المعرفي الجديد في الإبستيمولوجيا المعاصرة الذي يهتم بدراسة العلم بوصفه كلية مركبة من منظومة الفاعلين العلميين ونشاطاتهم وأدوارهم وعلاقاتهم وقواعد عملهم ومعاييرهم وقيمهم, وصراعاتهم وغاياتهم والعوامل المؤثرة في طبيعة نشاطاتهم؛ أي بكلمة واحدة: العلم بعده مؤسسة اجتماعية مستقلة.

العلوم الإنسانية والإستيمولوجيا الفلسفية:

يصعب دراسة وتعيين العلوم الإنسانية والاجتماعية في الحقل الابستمولوجي الراهن بمعزل عن السياق التاريخي الثقافي لصيرورتها المعرفية الداخلية والمؤثرات والعوامل السوسيولوجية الخارجية، وربما كان النظر في تاريخ العلاقة العضوية بين العلوم الإنسانية وفلسفة العلم المعاصرة يوفر المزيد من الضوء لفهم واقع العلوم الإنسانية وأزمتها الراهنة، وهذا هو مرامنا من هذا المدخل الجينولوجي الحفري في مقاربة المسألة، وذلك على النحو الآتي:

أولاً : نشأت فلسفة العلم بمعناها الأنضج على يد عالم الاجتماع الفرنسي أوغست كونت (1798– 1857) وكتابه (دروس في الفلسفة الوضعية) الذي حاول فيه تحرير العلم من اللاهوت والميتافيزيقا وتأملاتها المجردة؛ ومن هنا جاءت دعوته إلى تأسيس (فيزياء

اجتماعية (أي علم اجتماع وضعي يدرس المجتمع والظواهر الاجتماعية في حركتها وسكونها دراسة اختبارية وصفية كما هو الحال في العلوم الطبيعية ( ).

ثانياً : تطور الاتجاه الوضعي في الفلسفة عبر مسارين متوازيين: الوضعية التجريبية على يد فلاسفة العلم امثال: هنري بوانكاريه وإرنست ماخ وغيرهما حتى بداية القرن العشرين، وهو اتجاه يرى أن المعرفة الجديرة بالقيمة والأهمية هي تلك المستمدة من التجربة الحسية التي يمكن اختبارها واقعيا بالملاحظة والتحقق. والوضعية المنطقية، على يد موريس شيلك وفنجنتشتين وكارناب وغيرهم، ويذهب إلى تصنيف المعرفة في صنفين: الأول يتضمن مقولات قد تكون صحيحة أو خاطئة اعتماداً على أشكالها المنطقية أو معناها، وتسمى (تحليلية قبلية)، والثاني يتضمن مقولات يمكن التحقق من صحتها أو خطأها فقط من خلال التجربة وتسمى (تركيبية بعدية) ( ).

أما على صعيد العلوم الإنسانية والاجتماعية فقد اكتسبت وضعية كونت تطورها اللاحق على يد بعض علماء الاجتماع، أمثال دوركايم في كتابه قواعد المنهج في علم الاجتماع، ومن سار على نهجه فيما عرف بالمدرسة الوضعية، ويرى يان سبروك "أن سيطرة النزعة الوضعية في علم الاجتماع الفرنسي تجد تفسيرها ببساطة في تاريخ العلاقة بين علم الاجتماع والدولة الفرنسية" ( ). وفي أمريكا ازدهرت النزعة الوضعية في علم النفس، لاسيما المدرسة السلوكية وعلم الاقتصاد وعلم الأنثربولوجيا التجريبي ...إلخ.

ثالثاً: أفضت الدعوة إلى تأسيس علم اجتماع وضعي، إلى تعميق الهوة بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، وجعل هذه الأخيرة تشعر بعقدة نقص وعدم ثقة بذاتها. كتب عالم الاجتماع الإنجليزي أيان كريب: "إن السواد الأعظم منا –يقصد المشتغلين في العلوم الاجتماعية – لا يعرف إلا القليل عن العلوم الطبيعية، ولكننا مع ذلك نعتبر أن علم الطبيعة النظري شيء جيد؛ إذ يبدو أن لهذا العلم نتائج عملية وحتى لو علمنا سلفا أننا لا نستطيع استيعاب هذا العلم، فإننا نشجع أولئك القادرين عليه، وبالمقابل ننظر إلى العلوم الاجتماعية كما لو أنها ليس لها أي نتائج عملية، والأسوأ من ذلك الاعتقاد بأنها تتناول موضوعات نعرفها معرفة وثيقة هي حياتنا الاجتماعية وتحولها إلى هراء لا يفهم" ( ).

رابعاً: في النصف الثاني من القرن العشرين شهدت فلسفة العلم باتجاهاتها (مابعد الوضعية(ثورة منهجية نقدية كبرى، وذلك في إثر الانتصار الذي أحرزته النظرية النسبية والكوانتم في الفيزياء، كان أبرز ممثليها كارل بوبر وتوماس كون وأمرى لاكاتوش وفيرابند. وعلى الرغم من نقاط الاختلاف بينهم فإنهم جميعاً اتفقوا على نقد الوضعية التقليدية ونزعتها العلموية المتطرفة، وأكدوا خطأ الفصل والتمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية فيما يتصل بالمنهج والجدارة والأهلية المعرفية فضلا عن القيمة والأهمية الاجتماعية. هكذا كتب كارل بوبر "منذ سنوات عديدة وأنا ناقد لما يسمى علم اجتماع المعرفة...ومن بين ما تصديت له معتقد مانهايم بأن ثمة اختلافاً جوهرياً بين العالم الاجتماعي والعالم الطبيعي أو بين دراسة المجتمع ودراسة الطبيعة فيما يتعلق بالموضوعية ... وفي مواجهة هذا شددت على أن الموضوعية في العلوم الطبيعية والاجتماعية لا تقوم على حالة الحياد العقلي لدى العلماء بل فقط على واقعة هي عمومية وتنافسية المشروع العلمي، ومن ثم على جوانب اجتماعية معينة له؛ إذ إن ما يغيب عن علم اجتماع المعرفة هو سوسيولوجية المعرفة، السمة الإنسانية أو العمومية للعلم، أن الموضوعية تقوم على النقد العقلاني المتبادل، وليس علماء العلوم الطبيعية ذوي عقول أكثر موضوعية من عقول علماء الاجتماع ولاهم نقديون أكثر منهم ... ويضيف أن أصل هذا الخطأ ناجم عن تصور

خاطئ لمناهج العلوم الطبيعية، وحالما نظفر بتفهم سليم لمناهج العلوم الطبيعية نستطيع أن نرى مساحة واسعة من التشارك بينها وبين مناهج العلوم الاجتماعية" ( ).

وهذا ما كان قد أدركه سابقاً الفيلسوف الألماني فيلهم دلتاي (ت1911)؛ إذ أشار إلى "أن العلوم الإنسانية مازالت تفتقر إلى تصور واضح ومتفق عليه عن أهدافها ومناهجها المشتركة والعلاقات بينها ... في حين أن العلوم الطبيعية تزداد منزلتها ومكانتها نمواً واطرادا بما نمطها في الرأي العام مثلا أعلى للمعرفة العلمية ليس بمقدور العلوم الإنسانية بلوغه" ( ).

خامسا: تميزت الحقبة المعاصرة بتزايد الوعي بأن العلم هو محاولات في مواجهة المشكلات والبحث عن حلول لها، وليس بمقدور منهج علمي واحد معالجة المشكلات التي تجابه الإنسان في حياته، بل إن طبيعة المشكلة هي التي تستدعي المنهج المناسب, وإذا كان منهج العلوم الطبيعية يعتمد (التفسير) منهجاً في بحث ودراسة موضوعاته فإن العلوم الإنسانية تتوسل نموذج (الفهم)، كما اقترح عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر "نموذج منهج الفهم بدلاً عن التفسير في دراسة الظاهرة الاجتماعية ( )"، هذا النموذج ازدهر في ألمانيا عند دلتاي وسميل ومدرسة فرانكفورت النقدية وفي البنيوية الفرنسية والماركسية الجديدة إلى نظرية التفاعلية الرمزية المعاصرة ( ).

كما هو واضح أفضت المنظورات النقدية الجديدة في فلسفة العلوم إلى تغيير النظرة الكلية بشأن الظاهرة العلمية عامة والعلوم الإنسانية خاصة، وإذا كانت أعمال بوبو قد لعبت دوراً محورياً فذلك لكونها مهدت السبيل لانطلاق إسهامات متعددة جاءت في أعقابها، وهذا ما أشار إليه أنطوني جدنز بقوله: "إن المناقشات في مجال فلسفة العلوم الطبيعية كان لها دلالتها المباشرة بالنسبة للمشكلات الابستيمولوجية في مجال العلوم الاجتماعية" ( ).

وربما كان توماس كون هو أكثر الفلاسفة أثراً في العلوم الإنسانية والاجتماعية المعاصرة؛ إذ "إن ما هو مشترك اليوم هو الإشارة إلى التأثير الفكري لتوماس كون في عملية تنويع توجهات هذا الفرع – نقصد (فرع سوسيولوجية العلم المعاصر) – إذ ظهر كتاب بنية الثورات العلمية 1962م وتحول بسرعة إلى موضوع لمجادلات كثيرة. وقد تحمس له مرتون في رسالة إلى توماس كون في 13 ديسمبر 1962 يُطري فيها عمله قائلاً: "إنك تجمع المعنى العميق لطبيعة العمل العلمي، وأشكال التطور التاريخي للعلم، والعمليات السوسيولوجية المؤثرة تأثيرا مباشرا في هذا التطور" ( ).

ولما كان علماء الاجتماع والإنسانيات يعتقدون – عن حق – بأنهم يمارسون العلم، وأنهم ينتمون إلى) شريحة العلماء)، وأن مناهجهم ونظرياتهم ونتائجهم ومعاييرهم ليست فقاعات صابون، بل ثمرة لجهود مضنية من الدرس والتعلم والتأمل والبحث والتقصي.نقول لما كانوا يعون ذاتهم على هذا النحو فمن المؤكد أن قراءتهم توماس كون وغيره من فلاسفة العلم قد أدخلهم في أتون أزمة نفسية ومعرفية عميقة؛ إذ راحوا يطرحون الأسئلة من جديد عن طبيعة عملهم وطائفتهم، ومناهجهم، وحقائقهم، وعن كل شيء يتصل بوضعهم. وهذا هو ما ألمح إليه ألفن جولدنر في كتابه ،الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي، إذ أشار إلى أن توماس كون فتح أبصار العلماء على رؤية أنساقهم المألوفة ومسلماتهم وعاداتهم ومفاهيمهم في ضوء نموذج جديد وأطر إدراكية مختلفة؛ إذ جعلهم يستيقظون من سباتهم المدرسي وأخذوا ينظرون إلى عوالمهم بعيون وبصيرة نقدية جديدة" ( ).

في السياق ذاته يذهب فيلسوف العلم ميشيل بولاني إلى تأكيد الطابع الشخصي للمعرفة العلمية،" فصحيح أن العلم الطبيعي يبحث في عالم فيزيقي لا شخصي، إلا أنه ذاته نشاط ذو سمة شخصية، فلا يمكن تتبع نمو المعرفة العلمية إلا كسلسلة من أفعال أشخاص

معينين وإنجازاتهم وأحكامهم وكشوفهم وخيالاتهم وحدوسهم، والعلم لا يعمل في فراغ مطلق، بل يفلح أرضاً مهدتها الثقافة السائدة أو تركتها صعيد بلقعاً" ( ).

على هذا النحو يمكن لنا تتبع تيار الاتجاه النقدي في الابستيمولوجيا المعاصرة الذي أخذ يشق طريقه باضطراد منذ كارل بوبر حتى بلغ أقصى مدياته مع فيلسوف العلم الأمريكي باول فيرابند في كتابه المثير للجدل (ضد المنهج: مخطط تمهيدي لنظرية فوضوية في المعرفة) إذ أكد" أن العلم لم يكن أبداً أسير منهج واحد محدد، بل هو مشروع حر لا يخضع لأي سلطة، وكل المناهج يمكن أن تجدي فيه، العلم ليس نظاماً معرفياً مقدساً يستلزم الكفر بكل ما عداه أو خالفه؛ إنه نظام عقلاني يجب أن ينمو ويزدهر وسط الأنظمة المعرفية الأخرى بدون قيد أو شرط، وينتهي فيرابند إلى أنه لا فرق بين مناهج العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ( )".

هكذا أفضت النظرة النقدية إلى تأكيد البعد السيوسيولوجي للمعرفة العلمية، ونسبيتها وطبيعتها الإنسانية ، فضلا عن كونها أعادت الاعتبار للعلوم الاجتماعية والإنسانية بوصفها علوماً جديرة بالقيمة والثقة والتقدم ( ).

في ضوء ما تقدم يمكن إجمال الموقف بالنقاط الآتية:

أولا: النزعة النقدية الجذرية لكل المطلقات والمقدسات والمسلمات والبديهيات الحداثية التنويرية، والتشكيك بكل المفاهيم والقيم والمؤسسات التي قامت عليها الحداثة: مفاهيم العقل، والعلم، والتقدم، والنظام، والتاريخ، والقومية، والدولة، والقانون الحتمية، واليقين، والحقيقة، والموضوعية، والذات والموضوع والكم والكيف ...إلخ.

ثانيا: هدم الثنائيات ألكلاسيكية (الذات – الموضوع العلم – اللاعلم، المنهج – النظرية، الدال – المدلول، العقل – الانفعال، المادي – المثالي، الواقعي – الافتراضي، الأنا — الآخر ...إلخ) فأحلت النسبية محل الحتمية، والشك محل الوثوق، واللايقين محل اليقين، والتعددية محل الواحدية، والحكايات الصغرى محل الحكايات الكبرى، والوسائل محل الغايات، والتمثيل محل الواقع، والرغبات محل الضرورات، والملذات الحسية الفورية محل القيم العقلانية، والتفكيك محل التنسيق، والصورة محل الأصل.. .إلخ ( ).

ثالثا: ظهور أنماط جديدة من الظواهر والمشكلات الإنسانية والاجتماعية،وسرعة تحولها إلى مشكلات عالمية، كمشكلة سباق التسلح والحروب والأمن والسلام الدوليين، ومشكلات البيئة الأرضية والأوزون، وصدام وحوار الحضارات، ومشاكل الاقتصاد والتجارة والمال والأعمال العابرة للقارات. ومشاكل الفقر والصحة والمرض، ، والتطرف والإرهاب والعنف، ومشاكل الهويات والتعددية الثقافية، والأقليات والتمييز والتعصب والاستبعاد الاجتماعي، والهجرة غير الشرعية، والمخدرات والبطالة والفقر والحركات الاجتماعية، والمرأة والطفل والشباب، وكل ما يتصل بحقوق الإنسان، ومشاكل السياسة والنظم السياسية والعدالة والحرية والديمقراطية والمجتمع المدني. والمشكلات الأخلاقية للعلم؛ كالاستنساخ، وزراعة الأعضاء، ومنع الحمل، ومشاكل الفضاء السيبرنيتي والأقمار الاصطناعية والوسائط الإعلامية والتواصلية ومشاكل التربية والتعليم والجودة والاعتماد الأكاديمي..إلخ.

كل تلك المتغيرات والتحولات التي طالت كل مناحي الحياة الإنسانية والاجتماعية للعالم الراهن أفضت إلى إدخال الإبستيمولوجيا الإنسانية في حالة أزمة منهجية ونظرية وتحديات حاسمة. وهذا هو ما سوف نعالجه لتونا.

أزمة العلوم الإنسانية وسوسيولوجيا العلم المعاصر:

واجهت العلوم الإنسانية والاجتماعية ومازالت، تحديات وأسئلة لم تشهد مثيلاً لها في تاريخها الطويل، وهذا ما يشف عنه القلق المتزايد الذي أخذ ينتاب علماء الإنسانيات والاجتماع في المجتمعات الغربية، بعد أن أحسوا بعجزهم إزاء ما يشهدونه من تحولات وظواهر جديدة لا عهد لهم بها، وليس بمقدور نماذجهم المعرفية التقليدية الإحاطة بها وفهم دلالاتها. كتب الفرنسي جوفاني بوسينو: "إذا كان من الواجب تمييز علم الاجتماع في الأربعين سنة الأخيرة بكلمة واحدة فإن)كلمة) انقلاب هي التي تفرض نفسها بالتأكيد، فمنذ أواخر سبعينيات القرن العشرين بدأت الوظيفية ومعتقدات و تأكيدات أخرى تتمزق، وبدت كل التحليلات والتنبؤات المتعلقة بالواقع التاريخي الاجتماعي التي غذت تفكيرنا ووجهت بحوثنا حينذاك حشوية وخادعة، وأدى عجزنا عن تفهم وتفسير انبثاق الجديد والمختلف والمغاير والآخر... وبات وجودنا ونشاطنا من الآن فصاعد باطلاً وغير مفيد .. وبدون جدوى؛ إذ تحطمت فكرة الجماعة التي كانت تمنحنا هويتنا المهنية، ودورنا ومقاييسنا العلمية وآمالنا ومشاريعنا ... وأدركنا أن مجرى التحولات الجديدة والتغيرات السريعة قد جردتنا من كل أدواتنا وأطرنا المرجعية التقليدية. ويخلص بوسينو إلى التساؤل) :هل هو إفلاس العلوم الاجتماعية وموت علم الاجتماع وبطلان كل نماذج معرفتنا للشأن الاجتماعي؟) مجيباً: إني لا أعرف الإجابة وكل ما أعرفه أن العقل الغربي هزته أزمة عميقة، يصعب تحديد طبيعتها وعمقها ومداها ونتائجها" ( ).

وفي السياق ذاته جاءت صرخة بول فيين؛ إذ كتب تحت عنوان فرعي،) توعك السوسيولوجيا) قائلاً " ليس سراً على أحد أن السوسيولوجيا تعيش اليوم متوعكة، وأن أفضل رجالها بل ومعظمهم لا يأخذون على محمل الجد إلا العمل الامبريقي التجريبي... و بإيجاز فالسوسيولوجيا ليست ككلمة إلا جناساً (اتفاق الحروف واختلاف المعنى (وأن كتابة تاريخ السوسيولوجيا من كونت ودوركايم إلى فيبر وبارسونز ولازار سفلد، ليست بمثابة كتابة تاريخ فرع متخصص من العلوم ، بل تاريخ كلمة، فلا وجود بين أحد هؤلاء المؤلفين والآخر أي استمرار في الأسس والمنطلقات والموضوعات والمقاصد أو المناهج ، فليست السوسيولوجيا بالتعريف فرعاً علمياً متخصصاً، فرعاً متطوراً ، ولا وجود لاستمراريتها إلا بواسطة اسمها الذي يقيم صلة لفظية بحتة بين أنشطة عقلية لا صلة بينها" ( ) .

في الواقع لقد طالت الأزمة أنساق العلوم الإنسانية الغربية كلها، وانتشرت كالنار في الهشيم في مختلف الدوائر الفكرية والأكاديمية الأورأمريكية، فعلى صعيد الدراسات التاريخية كتب المؤرخ الإنجليزي جفري باراكلاف من جامعة أكسفورد تحت تأثير الإحساس العميق بالأزمة: "إننا مهاجمون بإحساس من عدم الثقة، بسبب شعورنا بأننا نقف على عتبة عصر جديد لا تزودنا فيه تجاربنا السابقة بدليل أمين لسلوك دروبه، وإن أحد نتائج هذا الموقف الجديد هو أن التاريخ ذاته يفقد – إن لم يكن قد فقد – سلطته التقليدية ولم يعد بمقدوره تزويدنا بخبرات سابقة في مواجهة المشكلات الجديدة التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً منذ آدم حتى اليوم" ( ).

وقد بلغ هذا الموقف المتشكك بلا جدوى التاريخ والمعرفة التاريخية عند المؤرخ الأمريكي دافيد رونالد، من جامعة هارفارد، حد الاستفزاز والتحدي في كتابه ،تاريخنا بلا أهمية، أعلن فيه "أن التاريخ يظهر مقدار ضعفنا في مواجهة الحاضر وأننا لا نتعلم من أخطاء الماضي، وما أقل تأثيرنا في ما ينزل بنا من أحداث، وما أشد عجزنا في قبضة قوى أساسية هي التي تشكل الوجود الإنساني" .( )

ويمكننا تتبع هذا الإحساس القلق بحالة الأزمة عند عدد واسع من علماء الإنسانيات من مختلف الأنساق المعرفية، فهذا عالم الاجتماع التربوي مالكهولم تويلز يقر بذلك حيث يقول: "إننا نعيش في زمن تتسارع فيه التحولات الاجتماعية وتتغير فيه المعارف بسرعة

مضطردة، بحيث غالبا ما تصبح فيه الكتب قديمة قبل خروجها من المطبعة، وبات من الضروري إعادة النظر في استراتيجيات التربية والتعليم وأهدافها بما يتواكب مع تلك المعطيات الجديدة" ( ).

تكشف تلك النصوص طبيعة الأزمة وقوة أثرها الصادم عند علماء الإنسانيات الغربيين وكيفية تعاملهم وفهمهم لها؛ إذ رغم إقرارهم بوجودها فإنهم يختلفون في تأويلها، فهذا أولفين توفلر يقر بوجود الأزمة إلا أنه يرى فيها بشارة ميلاد جديد لحضارة جديدة، إذ كتب: "إن التغيرات السريعة التي نلاحظها في عالم اليوم ليست بهذه الدرجة من الفوضوية والعرضية، التي يهيؤننا لتصديقها، بل إن وراء الأحداث المعروضة بعناوين كبيرة، جملة من البنى ليست ملحوظة وحسب، بل هناك قوى يمكن تحديدها وهي التي تتحكم في تلك البنى وتهبها صورتها،... اليوم تواجه البشرية قفزة هائلة إلى الأمام، تواجه أعمق فورانا اجتماعيا، وأشمل عملية إعادة بناء في التاريخ، ونحن اليوم مندمجون في بناء حضارة جديدة متميزة بدءاً من البداية، وإن كنا غير واعين تماماً لهذه الحقيقة وهذا ما نعنيه بحضارة الموجة الثالثة" ( ).

بغض النظر عن تأويلات الأزمة، يهمنا التأكيد أن ثمة اتفاقًا بين معظم الفلاسفة والعلماء على أن المجتمع الإنساني الراهن يعيش لحظة تحول سريعة ومضطربة تصيب الإنسان بالذهول وتتحدى قدراته على الفهم والحكم والتمييز "إذ سرعان ما تأتكل الكلمات في محاولة التعبير عن هذا العالم المنبثق حيث الحركة هي القانون والرجوع إلى الماضي لا يسعف كثيراً في فهم هذا الزمان، فهناك كثير من المستجدات التي توهن العزم على الاستعانة بالمماثلة وأن المشكلات التي تراكمت في أواخر القرن العشرين جعلت العالم يبدو للإنسان وكأنه تيه ( )".

وسط هذه الأزمة العاصفة وقف علماء الإنسانيات أمام خيارين لا ثالث لهما: إما التشاؤم والقنوط واليأس والعجز, وإما التفاؤل والتفكير والمبادرة باتخاذ موقف نقدي جذري من كل شيء؛ نقد الذات ونقد التصورات ونقد التاريخ والتراث والمجتمع والحياة ونقد نظرياتهم ومناهجهم وأدواتهم وتصحيحها في ضوء المتغيرات وما تحمله من معطيات وممكنات سوسيولوجية وإبستيمولوجية جديدة. وهذا ما تم فعلاً؛ إذ مثلّت سنوات الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي لحظة تحول حرجة للعلوم الإنسانية والاجتماعية في مواجهة السؤال الجوهري: "كيف يمكن جعل مرحلتنا المفصلية بين مجتمع الأمس الآخذ بالزوال وبين المجتمع الآخذ في الانبثاق قابلة للتعقل والإدراك؟" ( ).

وإذا ما حاولنا رصد ابرز ملامح أزمة العلوم الإنسانية ومخاضات تحولاتها في الإبستيمولوجيا المعاصرة فيمكنا اجمالها بالنقاط الآتية:

أولا: شهدت الإبستيمولوجيا الإنسانية أكبر ثورة نقدية في تاريخها؛ إذ لأول مرة في تاريخها ينبسط الإنسان ومشكلاته الاجتماعية موضوعاً كلياً ومحورياً للفلسفة والعلوم الإنسانية؛ إذ شكل الإنسان سؤالاً رئيساً لمعظم المدارس والاتجاهات الفلسفية المعاصرة (الفينومولوجية والوجودية والشخصانية والحيوية والماركسية الجديدة والتحليل النفسي والهرمنطيقيا، والأنثربولوجيا والتفكيكية، والسمولوجيا وفلسفة اللغة وفلسفة الجسد ..إلخ. ( )

ثانيا: شهدت المعرفة الإنسانية والاجتماعية فيضاً غنياً من الرؤى والأفكار النقدية في سلسلة مضطردة من البحوث والدراسات النظرية النقدية ،فضلاً عن اتساعها الأفقي في ارتياد مجالات وحقول وموضوعات جديدة لم تألفها في ماضيها الكلاسكي من ذلك : الدراسات الثقافية والنقد الثقافي التي تنضوي على طيف واسع وشديد التنوع من المواضيع والمشكلات(دراسات المرأة والهيمنة وما

بعد الكونيالية وسوسولوجيا الصحة والمرض، وسوسيولوجيا الإعلام والتواصل والاتصال وأخلاقيات العلم والتكنولوجيا، والانثربولوجيا الثقافية والتعددية والهوية، و قضايا حقوق الإنسان وغير ذلك).

ثالثا: الحضور المتزايد لخطاب العلوم الإنسانية والاجتماعية على الصعيد العالمي واتساع نطاق انتشارها وتمكينها وتوطينها أكاديميا وثقافيا وإعلاميا في مختلف المجتمعات والبلدان وتخصيبها بـ(الخطابات البديلة) التي أخذت تنتشر في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، عبر فتح المزيد من المؤسسات الأكاديمية ومراكز الأبحاث والدراسات المتخصصة الرسمية والمدنية. ( )فضلاً عن قيام الهيئة العامة للأمم المتحدة (اليونسكو) بإصدار العديد من القرارات والتوصيات والتقارير التي شددت على ضرورة نشر العلوم الإنسانية والاجتماعية وتنميتها في جميع الدول الأعضاء لأهميتها الحيوية في التصدي للمشكلات النوعية المتزايدة. "لا يزال للعلوم الاجتماعية الغربية أكبر تأثير على المستوى العالمي. لكن نطاق هذا المجال يتسع بسرعة في آسيا وأمريكا اللاتينية، لاسيما في الصين والبرازيل. وفي إطار أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، ينتج العلماء الاجتماعيون في جنوب أفريقيا ونيجيريا وكينيا 75% من المنشورات الأكاديمية. ويحتل مجال العلوم الاجتماعية ككل مرتبة متدنية في سلم الأولويات في جنوب آسيا، باستثناء عدد من مراكز الامتياز في الهند"( ).

رابعاً: إعادة تعريف وتصنيف العلوم الإنسانية تعريفاً نقدياً جديداً في ضوء المداخل السوسيولوجية المعاصرة بما فتحته من آفاق منهجية واستبصارات نقدية بالغة الأهمية في دراسة وفهم العلم عامة والعلوم الإنسانية تحديداً، إذ شهد التاريخ الداخلي (الابستمولوجي) في العلوم الإنسانية والاجتماعية أعمق ثورة نقدية في تاريخها، وهذا ما أفضى إلى إعادة تنظيمها، بنيوياً ووظيفياً افقياً وعمودياً، إذ لم بات العلم الإنساني يتفرع إلى عدد لايحصى من الانساق التخصصية،ولم يعد من الممكن اليوم الحديث عن علم النفس بوصفه فرعاً علمياً واحداً، بل تفرع إلى مئات التخصصات النفسية الدقيقة، وهذا هو الحال في علم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وعلم الثقافة وعلم الفلسفة...الخ. كتب ايان سبورك قائلاً:" من أجل فهم التعددية السوسيولوجية المعاصرة يتم التمييز بين أربعة نماذج لعلماء الاجتماع : المتذّهن أو المنظر, والأكاديمي الرسمي، وعالِم الاجتماع الاستعراضي الإعلامي وأخيراً الخبير"( ) مع التشديد المتزايد على ضرورة ردم الهوة بينها وبين العلوم الطبيعية.

المنظور السوسيولوجي النقدي والعلوم الإنسانية:

على مدى السنوات الماضية تم تطوير عدد من المنظورات النقدية الجديدة في سوسيولوجيا العلم المعاصر، بوصفها أدوات منهجية فاعلة في دراسة وبحث الظاهرة العلمية، ولما كان موضوع بحثنا هو تعيين (راهن العلوم الإنسانية واستشراف مستقبلها) فمن المهم التعرف على أهم مداخل السوسيولوجيا النقدية في دراسة موضوعنا وفهمه، بالاستفادة من بعض النماذج المنجزة في سوسيولوجيا العلم المقارن، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: مدخل البارادايم( )أو نموذج الرؤية الكلية : وهذا هو المنظور الذي صاغه توماس كون والذي أثبت من خلاله أن مسألة نمو العلم وتقدمه وازدهاره ليست مسألة علمية بل تتعين في تلك المجالات الواقعة خارج العلم حيث يتأمل البشر طبيعة الكون والإنسان بأعمق معانيها وأشدها غموضا، وحيث يخلق الخيال الإنساني المؤسسات التي تسمح للأفراد بالاستمتاع على الدوام بالفضاءات المحايدة أو الأطر الميتافيزيقية والثقافية الأوسع التي تجري ضمنها أنماط العلاقات والممارسات والخطابات التي تتشكل في سياقها تصورات الإنسان عن ذاته وعن عالمه وعن الآخرين تشكيلاً عميقاً، وهذا هو معنى الثقافة بعدها منظومة كلية مركبة من كل ما نفكر فيه أو نقوم بعمله أو نتملكه أو نفضله كأعضاء في المجتمع، فالثقافة السائدة في حضارة ما بوصفها نموذجاً إرشادياً (باراديم) إما

أنها تدعم قوى الإنسان العقلية والإبداعية أو تحد منها وتضيق فرص نموها وازدهارها.( )و"كلمة ثقافة تطلق مجازاً على الجهد المبذول في سبيل تحسين العلوم والفنون وتنمية القدرات الفكرية ومواهب العقل والذكاء" ( )وهي بهذا المعنى تتميز بجملة من السمات منها: 1- التهيؤ كما هو الحال بالتربية البدنية التي تهتم ليس بتمرين عضو معين من أعضاء الجسم، بل بتمرين وتهيئة الجسم كله وإكسابه اللياقة اللازمة, والثقافة بوصفها استراتيجية للتنمية العقلانية المستدامة، تمنح الأفراد القدرة على استعمال جميع المعارف والمهارات المكتسبة لمجابهة الأوضاع المختلفة وحل المشكلات الجديدة؛ أي (الذكاء العاطفي) إذ (هي ما يبقى بعد نسيان كل شيء). 2- الاستيعاب بمعنى استخدام المعرفة وتجريبها ذاتيا؛ لأن المرء لا يستطيع أن يتصرف بمعرفة ما إلا عندما يستوعبها ويجسدها في لغته وذهنه وخبراته. 3- الشمول، القدرة على الربط العميق بين المعارف المستوعبة والموضوعات والقضايا التي تبدو متباعدة، والنظر إليها برؤية كلية. 4- الحكم، القدرة على التجريد واتساع الأفق الذي يعني في العلم (الحلم) وفي الفن (الذوق) وفي الأخلاق (الضمير) وفي الحياة (الفهم). وهذا هو (كل) ما يمكن انتظاره من الثقافة، وبدون هذا الـ(كل) لا وجود لشيء جدير بالقيمة والاعتبار ( ).

على هذا النحو يمكن فهم أهمية ودور الثقافة في تخصيب وإنجاب وتنمية التفكير العلمي وتمكينه في المجتمع ، وربما كان ماكس فيبر يقصد هذا المعنى حينما اشار إلى " إن الاعتقاد بقيمة الحقيقة العلمية لا يستمد من طبيعة العلم ذاته ، بل هو نتاج سياقات ثقافية واجتماعية تاريخية متعينة ".

ثانياً: مدخل الدور الاجتماعي للعالِم: يرى بعض العلماء أن النقطة المركزية في دراسة نمو العلم تتصل بوجود دور العالِم المعترف به والمقدر تقديراً إيجابياً في ثقافة المجتمع المعني، وهذا معناه أن المشتغلين في العلم ليسوا أشخاصاً معزولين عن مجتمعهم، بل هم فاعلون ثقافيون يعتمد وجودهم واستمرار نشاطهم على شبكة واسعة من الدعم والإسناد المؤسسي على شكل فرص للتعليم والبحث العلمي وقنوات لمناقشة نتائج أبحاثهم ونشرها، والتقبل والاعتراف الاجتماعي الضمني بهم بصفتهم علماء يحظون بالقيمة والتقدير الايجابي في مجتمعهم. وأخيرا الجزاءات التي ينالونها مقابل القيام بأدوارهم المتعددة، دور المعلم أو الأستاذ ودور الباحث العلمي ودور العضو في القسم العلمي ودور المدير أو العميد الإداري, ودور المناقش أو المحكم العلمي في ريازة الأبحاث والأطاريح العلمية أو حارس البوابة. يعد مدخل الدور الاجتماعي للعالِم من أهم الانساق المفتاحية في سوسيولوجيا العلم المعاصر، انطلاقاً من الفكرة الأساسية التي تقول : بأن لا سلطة اجتماعية إلا بوظيفة ولا دور اجتماعي إلا بسلطة. إذ "أن استمرار نشاط اجتماعي ما على مدى فترات زمنية طويلة، بغض النظر عن تغيير ممارسي هذا النشاط، يعتمد على ظهور أدوار اجتماعية لتمكين استمرار وترسيخ ذلك النشاط، وعلى فهم فئة اجتماعية لهذه ألأدوار وتقييم المجتمع الإيجابي لها أي منحها مشروعية وقيمة مقدرة خير تقدير" ( )،ومعنى الدور هو "ما يتوقع من شخص أو عدة أشخاص بوصفهم (جماعة منظمة) القيام به مؤسسيا بصفتهم أعضاء فاعلين داخل الأنساق المختلفة للمؤسسة المعنية ، وبهذا المعنى يختلف (الدور) عن (الوضع) كما ذهب جوزيف بن دافيد في كتابه (دور العالم في المجتمع)؛ إذ إن الوضع يشير إلى الجزاءات التي ينالها هولاء الفاعلون لقاء القيام بأدوارهم، وهكذا فإن مصطلح (دور) يحدد الوظيفة ومصطلح (وضع) يحدد الموقع التراتبي لوحدة ما في نسق اجتماعي" ( ). ويرى زنانيكي أن الشخص الذي يقدر له إنتاج المعرفة يمارس أدوارًا متعددة ومتكاملة منها: "دور الباحث، ودور المدرس، ودور الإداري، ودور المشرف العلمي، أو (حارس البوابة)، ولكل دور من هذه الأدوار قيمه ومعاييره المحددة بشفافية" ( ).

وهكذا يصف الدور الاجتماعي للعالِم : مجموع الوظائف النسقية المعترف بها اجتماعياً بوصفها وظائف وأدوارًا مشروعة ومقدرة اجتماعيا خوّل لفئة من أفراد المجتمع النهوض بها، والتي بفضلها منحوا اسمهم وصفتهم المهنية (علماء) لقاء ممارستهم نشاطاتهم وفق معاييرها وقيمها المهنية الخاصة بصفتهم جماعة أو مؤسسة علمية، والتي لا يكون المرء عالماً إلا بها.

وربما كان غياب هذا الدور في الثقافة العربية الإسلامية سبباً من أسباب تخلف الإنسان والمجتمع ومن ثم تخلف العلم عامة والعلوم الإنسانية خاصة، ومن منظور العلاقة الجدلية بين المعرفة والسلطة، فمن المحتمل أن غياب دور العلماء وتهميش قيمتهم ومكانتهم الاجتماعية في المجتمعات العربية الإسلامية التقليدية بالقياس إلى الحضور الطاغي لفئات اجتماعية أخرى أمثال: المشتغلين بالسياسة والسلطة، والفقهاء ووعاظ السلاطين والعسكريين وغيرهم من النخب التقليدية الذين مازالوا يشغلون ادوارا اجتماعية بالغة التأثير والنفوذ ويتمتعون بقيمة ومكانة اجتماعية عالية ومقدرة خير تقدير، في حين ان المشتغلين بالمعرفة العلمية والمؤسسات الأكاديمية مازالوا يعانون من عدم الاعتراف بدورهم الاجتماعي والمهني. وهذا يعبر عن تدني الوعي العام بقيمة الإنسان وحقوقه الأساسية بوصفه معياراً وهدفاً وغاية للتنمية المستدامة، كما أشار امارتيا صن "أن حرية الإنسان هي الغاية والهدف الأسمى لكل تنمية ممكنة، ذلك أن الحرية تعني المقدرة على الفعل والاختيار و التفكير والإبداع"( ). وحينما يصبح العلم مؤسسة اجتماعية مستقلة كما كانت ((الجمعية الملكية للعلوم التي تأسست في لندن عام 1645م وهي أول مؤسسة علمية رسمية و((أكاديمية العلوم في باريس)) عام 1662م فضلا عن المؤسسات الجامعية فهذا معناه مرحلة حاسمة في نشوء وازدهار الدور الاجتماعي للنشاط العلمي.

ثالثاً:مدخل مؤسسة العلم، مع مأسسة العلم ظهر مفهوم الجماعة العلمية بصفتها وحدة معيارية؛ إذ لا يكفي أن ندَعي أننا علماء حتى يتم الاعتراف بنا بصفتنا علماء. أن تكون عالمِا يعني أن تنتمي إلى إطار اجتماعي متشكل من مجموع الفاعلين المشتغلين في النشاط العلمي؛ أي (الجماعة العلمية) بمعنى الانتماء إلى (نسق اجتماعي): مؤسسة محددة، يمكن تمييزها عن بقية المؤسسات الاجتماعية. ويعني ثانيا أن يتم اختيارك وإدماجك في نسق يقيم فاعلوه علاقات ترابط وفق طرائق تتوافق مع مبادئ مهنية معيارية مخصوصة، وهو يعني أخيرا أنك موضوع لمراقبة اجتماعية، داخل المؤسسة، وأن عليك إتقان الدور الاجتماعي المقدر إيجابيا في الجماعة العل. وقد ترسخت المهنة الأكاديمية منذ أن تحولت إلى مؤسسة اعتبارية مستقلة فيما عرف بـ(الجامعة)؛ إذ اعتبرت المؤسسة المتحدة Universities من الناحية القانونية جماعة لها شخصية قانونية تختلف عن أعضائها فرادى،إذ كانت الجامعات منذ نشأتها في العصر الوسيط تتمتع بقدر كبير من الحرية والاستقلالية القانونية والمالية والإدارية، وكانت الحرية الأكاديمية هي السمة المميزة للجامعات، وهذا ما جعلها تتمتع (بحرمة) شبه مقدسة من ألانتهاكات والح ويؤكد جينز بوست "أن العلماء في جامعة باريس كانوا مع حلول سنة 1215م على أبعد تقدير، قد تبلور وجودهم على شكل هيئة تدعى (هيئة الأساتذة والعلماء بوسعها أن تضع القوانين وأن تنفذ الالتزام بها)" ( ). أن تكون عالمِا يعني أن تنتمي إلى إطار اجتماعي متشكل من مجموع الفاعلين المشتغلين في النشاط العلمي؛ أي (الجماعة العلمية) بمعنى الانتماء إلى مؤسسة محددة، يمكن تمييزها عن بقية المؤسسات الاجتماعية هذا اولاً، ويعني ثانياً؛ أن يتم اختيارك وإدماجك في نسق يقيم فاعلوه علاقات ترابط وفق طرائق تتوافق مع مبادئ مهنية معيارية مخصوصة، وهو يعني ثالثاً؛ أنك موضوع لمراقبة مهنية اجتماعية داخل المؤسسة وأن عليك إتقان دورك الاجتماعي المهني المقدر إيجابيا في الجماعة العلمية ( ). ويعني اجمالاً؛ اعتراف المجتمع بالوظيفة الخاصة للنشاط العلمي وبقيمته الاجتماعية ، وموافقة المجتمع تشكيل مجال مهني لضبط أدوار الفاعلين بما يحقق غايات ذلك النشاط ويصون استقلاليته.

و الأكاديمية تعني حرية التفكير والتعبير والاختلاف والتعليم وأن هيئة التدريس في الجامعة تتمتع بحق تدريس ما تعتبره صحيحاً وأنه ليس هناك قيود على ما يقوله الأستاذ أو يكتبه أو ينشره. ويرتكز هذا الحق على قدسية الحقيقة العلمية ،من ناحية، ومسؤولية المدرس في معرفة هذه الحقيقة وحقه في نقدها أو مناقشتها، دون إي قيود، من ناحية أخرى. ونعتبر حرية الجامعة واستغلالها من التقاليد التي ورثتها الجامعات الحديث والمعاصرة عن جامعات العصر الوسيط إذ أن الحرية هي الشرط الجوهري لنمو العلم والفكر العلمي، " وحاجة العلم إلى الحرية، مثل حاجة النباتات التي تنمو في البيوت الزجاجية إلى الشمس والأكسجين، أما إذا طليت النوافذ بالسواد كما في الحروب، فلا تنمو إلا الأعشاب الطفيلية الضارة، والإبداع العلمي يتيبس في البيئات الاستبدادية والتسلطية" ( ).

رابعاً: معايير المجال العلمي أو (خليقة العلم) حسب بوتون، ويعني ذلك النسق المركب من القيم والمعايير التي يلتزم بها الفاعلون العلميون بعدها أمور محظورة أو مفضلة أو مسموح بها، فهي تكتسب مشروعيتها من القيم المؤسسية وتتعزز بتشجيع السلوك النموذجي والمثل العليا للتميز والجدارة والجودة . ويعود الفضل إلى عالم الاجتماع الأمريكي روبرت ميرتون بصياغة أربعة مقومات أساسية للمعرفة العلمية هي: 1- العالمية، بمعنى أن الاكتشافات والنظريات العلمية يجب أن يحكم عليها بمعايير إنسانية عالمية محايدة, بمعزل عن المرجعيات الهوياتية الشخصية والجمعية للعلماء الذين يجب أن يسمح لهم بممارسة الخطاب العلمي بحرية وشفافية تامتين دون أية إكراهات أو ضغوط واقعية أو رمزية، سياسية أو اجتماعية أو دينية ..الخ. 2- الجماعية، يجب أن تكون مكتشفات البحث العلمي ملكاً للإنسانية كلها، وأن يتم تأمين نشر المعلومات والنتائج وتبادلها بسلاسة وإنسيابية وشفافية كاملة .3- التجرد، بمعنى متابعة البحث عن الحقيقة العلمية لذاتها ومن أجل ذاتها دون التأثر بالأهواء الشخصية أو المواقف والاتجاهات و الغايات الإيديولوجية أو المصالح السياسية أو غيرها.4- الشك المنظم، بمعنى عدم التسليم بأية حقائق أو معتقدات مسبقة، وإخضاع كل شيء للنقد والتمحيص ( )، بما فيها تلك الدعاوى الخاصة التي تصدر عن مؤسسات تحظى بالاحترام والإجلال ، فالعلم عدو كل السلطات بما في ذلك سلطة المؤسسة العلمية ذاتها، "إذ لا حاجة لأن تكون مهذباً في العلم ، بل أن كل ما عليك فيه أن تكون على حق" ( ).

بالنظر إلى تلك المداخل النقدية ، يمكننا تعيين واقع العلوم الإنسانية ومآلاتها المستقبلية ولعله من المهم الإشارة إلى كتاب توني أ. هب,بعنوان: فجر العلم الجديد: الإسلام –الغرب والصين, بوصفه مثالاً معبراً عن الاتجاه النقدي الجديد في سوسيولوجيا العلم المعاصرة، فضلاً عن كونه يتصل بالمسألة التي تهمنا هنا أقصد مسألة العلم وسبل نموه وتقدمه، والسؤال الذي ناقشه، هب هو: لماذا ازدهر العلم الحديث في الغرب وأخفق في الإسلام والصين؟ مستلهما مداخل المنظور السوسيولوجيا الجديد في مقاربته الإجابة.

كتب هب، تحت عنوان (مشكلة العلم العربي) مايلي:" لمشكلة العلم العربي بعدان على الأقل ، يتصل أحدهما بعجزه عن إنجاب العلم الحديث، ويتصل الثاني باضمحلال الفكر والممارسة العلميين في الحضارة العربية الإسلامية بعد القرن الثالث عشر. وعلى الرغم من أن تراجع الحياة الفكرية بعد العصر الذهبي مسألة ذات أهمية كبيرة لسكان الشرق الأوسط في أيامنا هذه فإنها تقع خارج حدود هذه الدراسة التي تهتم بالعلم العربي من القرن الثامن حتى آخرالقرن الرابع عشر الميلادي. ربما كان أرقى علم في العالم متفوقا بذلك على العلم في الغرب والصين. كان العرب في كل حقول العلم .. في طليعة التقدم العلمي ...إذ أن ما حققه العرب يثير الإعجاب إلى حد يدعو للتساؤل عن السبب الذي منعهم من اتخاذ الخطوة الأخيرة باتجاه الثورة العلمية الحديثة ؟ ويضيف " كان العرب قد وصلوا إلى حافة أعظم ثورة فكرية حدثت في التاريخ، ولكنهم رفضوا الانتقال من العالم المغلق إلى الكون اللانهائي) حسب

تعبير(Koyre كويري). وبما أنهم عجزوا عن اتخاذ هذه الخطوة الخطيرة في بداية العصر الحديث، فإن البلاد الإسلامية لا تزال تتمسك بالتقاويم القمرية" ( ).

وفي سياق تناوله للبُنى الثقافية والمؤسسية التي حالت دون مقدرة العلم العربي على اتخاذ تلك الوثبة الحاسمة من البارادايم التقليدي المغلق إلى البارادايم الحديث الجديد توصل هب إلى نتائج بالغة الخطورة والأهمية اليكم بعضها:

1- لم يكن لعلماء الطبيعة العرب دور معترف به اجتماعياً وثقافياً وسياسياً يوازي دور الفقهاء من حيث السلطة والنفوذ، بل كانت بنية الفكر والعواطف في الإسلام في القرون الوسطى بشكل عام ذات طبيعة جعلت طلب العلوم الوضعية والعقلية وعلوم الأولين أمراً يثير الشكوك ويجلب لأصحابها كثيراً من المتاعب والتهم الخطيرة على حياتهم ( ) .

2- كانت سلطة الفقهاء وسطوتهم شاملة بحيث لم يتركوا شيئاً للعلماء والفلاسفة ليقولوه، بل إن الفلاسفة وعلماء الإنسانيات لم يكن لهم وظيفة ودور معترف بهما في المجتمع، ومن ثم لم تكن لهم حماية، إذا ما أردوا التعبير عن آرائهم بشأن القضايا الفكرية بحرية، كمسألة خلق العالم، والعلية الطبيعية، والحرية الإنسانية، وما إذا كان بإمكان الإنسان الوصول إلى المبادئ الأخلاقية عن طريق الرؤية العقلية بعبارة توماس كون.( )

3- غياب البنية المؤسسية القانونية؛ أي عدم وجود الجماعات ذات الشخصية القانونية الاعتبارية المستقلة في الحضارات العربية الإسلامية؛ إذ لم تكن مؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي مؤسسات قانونية مستقلة، بل كانت المدارس ملحقه بالمساجد، وكانت المدارس مكرسة لتعليم علوم الدين والحساب، وتستبعد العلوم الطبيعية، فضلاً عن أن المدارس كانت مؤسسات خيرية وقفاً دينياً تنفذ رغبات وأهداف أصحابها الدينية وغير الدينية، كما أن نظام التعليم كان يعتمد على الصفة الشخصية، وكان الشيخ أو الفقيه هو الذي يمنح الإجازة لتلاميذه، ولم تكن الشهادة أو الإجازة تمنح من قبل جماعة أو مؤسسة مستقلة لا شأن لها بالأمور الشخصية كما كان عليه النظام في الجامعات الأوربية القروسطية. ولما كان التعليم في حقل العلوم الطبيعية يجري خارج المدارس الرسمية، فقد كان التخصص في علم من العلوم الأجنبية يقتضي السفر مسافات شاسعة بحثاً عن علماء متخصصين في علوم الأولين غير المرغوب فيها طبعاً .

إن البنية الشخصية المهيمنة في مختلف مجالات حياة المجتمع العربي الإسلامي قد عاقت نمو فكرة المؤسسة المستقلة وعرقلت نشوء معايير العلم الموضوعية والشمولية والعالمية والتراكمية، بل عرقلت نشوء الجامعة بوصفها مؤسسة حرة ومستقلة، يقول (هف): "إن الولايات القانونية في العالم الإسلامي لم تنشأ مطلقاً لأن المسلمين كلهم أعضاء في الأمة الواحدة ولا يجوز فصل المسلمين إلى جماعات يتميز بعضها عن بعض شرعاً"( )

4- غياب فكرة العقل والعقلانية؛ إذ إن مصادر الشرع هي القرآن الكريم، والسنة، والإجماع، والقياس، وهذا ما أفضى إلى التخلص من العقل بوصفه مصدراً من مصادر التشريع، وقد أدى التضييق على العقل إلى إنكار النظرة العقلانية إلى الطبيعية؛ أي دراستها بوصفها موضوعًا قابلاً للفهم والسيطرة ،كما أن مفهوم العقل الذي شاع عند المسلمين ليس العقل الفعال عند أرسطو، ولا (النور الداخلي) عند فلاسفة النهضة، بل يطلقون كلمة العقل على الأفكار التي يؤمن بها عامة الناس. ويرى فضل الرحمن أن "اللاهوت احتكر في نهاية المطاف حقل الميتافيزيقيا كله وأنكر على الفكر الخالص حق النظر نظرة عقلانية في طبيعة الكون وطبيعة الإنسان

،لكن العلم الحديث لم يكن له أن يظهر ويزدهر دون توافر أطر ميتافيزيقية عامة ومعترف بها تقوم على فرضيات عن انتظام العالم الطبيعي وخضوعه لقوانين معينة وعلى الإيمان بقدرة الإنسان على فهم البنية الكامنة في الطبيعة وفهم القوانين التي تتحكم في الكون والحياة والإنسان واستيعابها والتنبؤ بنتائجها والسيطرة عليها، وربما هذا هو ماقصده ماكس بيرونتز بقوله: "أنه لا يزال هناك ما يقال بشأن اكتشاف السبب في أن هناك آخرين عميت بصيرتهم عن التقاط ما حاولت الطبيعة أن تقوله لهم، على الرغم من أنهم في الظاهر كانوا قادرين على ذلك"( )

ويخلص (هف) إلى القول: "لقد ضيق مهندسو الشريعة واللاهوت في الحضارة العربية الإسلامية القدرات العقلية عند ألإنسان ورفضوا فكرة الفاعلية العقلية التي يتميز بها جميع بني البشر لصالح الرأي القائل إن على الإنسان أن يسير على نهج السلف وأن يتبع التقليد، وإن الأسلاف لم يتركوا شيئاً للآخلاف. أما الأوربيون القروسطيون فقد وضعوا تصوراً للإنسان والطبيعة كان فيه من العقل والعقلانية ما جعل النظرات الفلسفية واللاهوتية مجالات مدهشة من مجالات البحث التي كانت نتائجها لا هي بالمتوقعة ولا بالتقليدية .( )

وهكذا ينبغي أن نفهم أن أهمية العلم لا تمكن في جانبه المعرفي فحسب، بل وفيما يفعله من تغيرات جوهرية في حياة الناس الاجتماعية الثقافية ، وليس بمقدور أحد إنكار " أن العلم غير أنماط علاقاتنا ومعارفنا ومواقفنا من سلوك الإنسان وأحل بالتدريج الرؤية والعقل محل القسوة والتحامل والخرافة، وقد نما هذا التغيير نمواً بطيئاً جعله بحاجة إلى أن يعلّمه كل جيل للجيل الذي يليه بوصفه قيماً وتقاليداً ثقافية يجب أن تتوارث وتتهذب إنسانياً عبر تعاقب الأجيال ومن دون ذلك تكون أجسام الناس وحدها هي التي تنطلق بالطائرات والصواريخ أما عقولهم فترتد إلى العصور الوسطى.( )

إن إشارتنا إلى قراءة توني هب وتأويله لمشكلة العلم والتفكير العلمي في الحضارة العربية الإسلامية لا تعني بإي حال من الأحوال أننا نتفق معه، بل تهدف إلى تفعيل النقاش والنظر في ما ذهب إليه الرجل في إطار محاولاتنا المضنية لفهم الأسباب العميقة التي حالت وماتزال دون نمو وتقدم الإبستمولوجيا العلمية في المجتمعات العربية ، إذ رغم وجود أكثر من (300) جامعة عربية اليوم فضلا عن (600) كلية للدراسات الجامعية ومراكز الأبحاث والدراسات التخصصية, إلا أن أثرها في تغيير ثقافة المجتمع وتنميته وتنويره ثقافياً يكاد يكون غائباً، لا سيما في ظل ما تواجهه المؤسسات الأكاديمية من تحديات حاسمة ورهانات عسيرة, إذ لأول مرة أصبح تقييم الجامعات وتصنيفها أكاديميا على المستوى العالمي من حيث جودة المدخلات والمخرجات والعمليات والبحث العلمي مضمارا للتنافس المحتدم بين الدول والجامعات المصنفة عالميا والبالغ عددها قرابة (10000) حسب اليونسكو منها (1460) جامعة إسلامية اشتمل عليها (مركز أنقرة) في تركيا، بما فيها بعض مؤسسات التعليم العالي العربية من دول أعضاء منظمة المؤتمر الإسلامي عام 2006م. يختار منها (2000) مؤسسة أكاديمية للمنافسة, وقد أظهرت نتائج قياسات الجودة العالمية للجامعات في السنوات الماضية غياب أسماء الجامعات العربية في مصنف أفضل (500) جامعة عالمية تمكنت من الفوز باختبار معهد التعليم العالي في جامعة (شانغهاي جياوتونغ) المستقل. بينما سجلت إسرائيل (7) جامعات, لم تتمكن الدول العربية مجتمعة من تسجيل الحضور عدا جامعة القاهرة بدرجة (509) لحصول بعض خريجيها على جائزة نوبل . وفي تصنيف مختبر القياس الافتراضي التابع للمركز الأعلى للبحث العلمي في اسبانيا لعام 2007م حصلت (15) جامعة عربية على مراتب في تصنيف الحضور العلمي ولكنها مراتب متواضعة.

ونزعم أنه يصعب الحديث عن معايير الجودة والتمييز والأداء الأكاديمي والقيم المهنية بمعزل عن المؤثرات السوسيو ثقافية التي تأتي من خارج أسوار الجامعة( ) فالجامعة بحكم حداثة ميلادها في بيئتنا الثقافية العربية التقليدية مابرحت عرضة لشتى أنواع الاختراقات والانتهاكات من مجالات الحياة الأخرى وقواها الاجتماعية الفاعلة في نسق العلاقات والممارسات والعادات والمعتقدات الاجتماعية المادية والمعنوية بطابعها التقليدي في مجتمعنا العربي الإسلامي الراهن, إذ "إن الالتزام بأنماط معينة للعلاقات الاجتماعية يولد طريقة معينة في النظر إلى العالم، كما أن رؤية العالم بطريقة معينة تبرز نموذجاً منسجماً معها للعلاقات الاجتماعية"( ). فالقوى التقليدية بمؤسساتها الراسخة لم تمهد السبيل المفترض لنمو وتقدم العلم والمؤسسة الأكاديمية الحديثة, بل ما زالت تكبلها وتعيق حرية حركتها بدون وعي أو بوعي أحياناً, وهذه هي سنة الحياة الاجتماعية؛ أنه الصراع الأبدي بين القديم والحديث بين التقليد والتجديد بين المألوف وغير المألوف بين المعروف والمجهول بين الطبع والتطبع، بين العادات التي شكلتنا والعادات التي نريد أن نشكلها, إذ إننا (نشكل مؤسساتنا ثم تقوم هي بتشكيلنا) حسب تشرشل, والأفراد يأتون ويذهبون ، أما المؤسسات فهي وحدها التي قد تدوم دواماً نسبياً إذ ما تم الحفاظ على قيمها وتقاليدها ومعاييرها عبر الممارسات اليومية لمنتسبيها الذين يحملون هويتها المهنية، فكيف ما كانت مؤسساتنا نكون( )

الخاتمة:

بحمد الله تعالى وتوفيقه أوشكت هذه الرحلة الفكرية المضنية والممتعة معاً على الانتهاء، وكل ما نرجوه هنا والآن هو أن نكون قد استطعنا إثارة اهتمام الزملاء والزميلات الكرام بشأن مشكلة العلوم الإنسانية وسوسيولوجيا العلم المعاصر، التي لا ندعي الأحاطة الشاملة بأبعادها المتشعبة. ونجمل الخلاصة بالآتية :

_ أن نمو وتقدم العلوم الإنسانية يكتسب صيغا ومستويات مختلفة في السياقات الثقافية والاجتماعية المتغايرة ، وهذا ما يستدعي معالجة المسألة من منظور سوسيولوجيا العلم المقارن.

_ أن حجم ونوعية المشكلات الإنسانية والاجتماعية التي أفرزتها المتغيرات التاريخية والحضارية العالمية المتسارعة اليوم، تستدعي الحاجة الملحة إلى ردم الهوة الشاسعة بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، والنظر إلى المشكلات ومواجهتها وبحثها بصيغة تكاملية ورؤية عقلانية نقدية.

_ أن التعرف على حقيقة وضعنا العلمي المهني والأكاديمي لا يمكن له أن يكون ممكناً بدون معرفة المثل العليا والنماذج المعيارية للمؤسسات المشابهة المعترف بها عالمياً، إذ لا وجود لمعايير محلية أو خاصة لقياس وتقييم جودة العلم ومؤسساته.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

السنة النبوية الشريفة

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ، المقدمة ،دار العودة ، بيروت ، 1981.

ابن منظور,محمد بن مكرم ، لسان العرب, جز10, دار صادر، بيروت, 2003ط5.

صن ، امارتيا ،التنمية الحرية: مؤسسات حرة وإنسان متحرر من الجهل والمرض والفقر، مجلة عالم المعرفة الكويتية، العدد312 .

صبور ،امحمد ، المعرفة والسلطة في المجتمع العربي: الأكاديميون العرب والسلطة، سلسلة اطروحات الدكتوراه 18، مركز دراسات الوجدة العربية،بيروت ، اكتوبر 2001، ط2.

جيدنز ، انتوني ،قواعد جديدة لمنهج في علم الاجتماع ، ترجمة محمد محي الدين المجلس الأعلى للثقافة ، 2000،ط1.

ربول ، اوليفيه ، فلسفة التربية، ترجمة، جيهان نعمان، دار عويدات، بيروت _ باريس، 1986،ط3.

أيان كريب ، النظريات الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس ، ترجمة محمد حسين علوم ، مجلة عالم المعرفة الكويتية العدد 244 أبريل 1999.

فيين ، بول ، أزمة المعرفة التاريخية: فوكو و ثورة في المنهج ترجمة ، إبراهيم فتحي، دار الفكر للدراسات القاهرة، 1993،ط1.

بورديو ، بيير، الهيمنة الذكورية, ترجمة سلمان قعفراني, مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت , 2009م ط1 .

ماشيري ،بيار ، كونت الفلسفة و العلوم ، ترجمة ، سامي أدهم ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت 1994ط 1.

بورديو,بيير، بعبارة أخرى: محاولة باتجاه سوسيولوجيا انعكاسية, ترجمة أحمد حسان، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة ، 202،ط1.

تريفور بنش ، دور الجماعات العلمية في تنمية العلوم ، ترجمة محمد أمين سليمان ، مجلة العلم والمجتمع ، اليونسكو فبراير1990...

كون ،توماس ، بنية الثورات العلمية، ترجمة: حيدر حاج اسماعيل, المنظمة العربية للترجمة, مركز دراسات الوحدة العربية, بيروت , لبنان,2007م ط1.

هف، توني ،فجر العلم الحديث ، الإسلام – الصين الغرب ، ترجمة محمد عصفور مجلة عالم المعرفة الكويتية , العدد 260، أغسطس 2000 م.

هيمور ،تيدور ، تأملات حول التاريخ والمؤرخين عرض وتحليل مصطفى العبادي، مجلة عالم الفكر الكويتية المجلد العشرون.. العدد 1 يونيو 1989.

بالاندية ،جورج ، في الطريق إلى القرن الواحد والعشرين .. التيه، ترجمة، محمد حسن إبراهيم، دمشق وزارة الثقافة ، دراسات فكرية 6، 2000م ،ط1.

فروند ، جوليان ، علم الاجتماع عند ماكس فيبر ، ترجمة تيسير شيخ الأرض ، وزارة الثقافة دمشق 1976،ط1.

تارلاشاه ،جون برينان ،إدارة الجودة في التعليم العالي.منظور دولي عن التقويم المؤسسي،ترجمة دلال بنت منزل النصير– معهد الإدارة العامة،السعودية الرياض2007م،ط1.

دلوز ، جيل, المعرفة والسلطة, مدخل لقراءة فوكو – ترجمة، سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1987ط1.

بوسينو ، جيوفاني ، نقد المعرفة في علم الاجتماع ، ترجمة محمد عزب صاصيلا ، المؤسسة الجامعية للدراسات بيروت ، 1995،ط1.

هوكس ،ديفيد ، الإيديولوجية, إبراهيم فتحي(مترجم) (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2000ط1.

وليامز ، ريموند ، الكلمات المفتاحية : معجم ثقافي ومجتمعي، ترجمة، نعيمان عثمان, المجلس الأعلى للثقافة, المشروع القومي للترجمة 980، القاهرة، 2005، ط1.

هاسكنز ،س.هـ..نشأة الجامعات في العصور الوسطى،ترجمة جوزيف نسيم يوسف، الإسكندرية،مؤسسة شباب الجامعة1984م ط1.

عطاس ،سيد فريد ، تعريف الخطابات البديلة وأنواعها ، مجلة إضافات، العدد التاسع ، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، شتاء2010 ، بيروت.

فرانسوا ،شاتلية, , ايديولوجية الحرب والسلم , المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر , بيروت ,ط1, 1981.

بينيت ،طوني واخرون، مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلاحات الثقافة والمجتمع، ترجمة، سعيد الغانمي, المنظمة العربية للترجمة, مركز دراسات الوحدة العربية, بيروت, 2010ط1.

هيرنز ،غودموند واخرون ،الفجوات المعرفية: تقرير اليونسكو العالمي للعلوم الاجتماعية لعام 2010، النت, جوجل، موقع منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة.

المحبشي ،قاسم عبد, فلسفة التاريخ في الفكر الغربي المعاصر: أرنولد توينبي موضوعا, الهيئة العامة للكتاب, صنعاء, 2006م ط1.

بوبر، كارل ، أسطورة الإطار ، تحرير مارك أنوتونو ، ترجمة يمني طريف الخولي ، مجلة المعرفة الكويتية العدد 292 مايو 2001..

ماكس بيروتيز، ضرورة العلم : دراسة في العلم والعلماء، ترجمة وائل أتاسي، سلسلة عالم المعرفة الكويتية 245، مايو 1999.

ماهر عبد القادر محمد علي ، فلسفة العلوم ج2 ، المشكلات المعرفية ، دأر النهضة العربية بيروت ط1، 1984 .

ميشال دوبوا، مدخل إلى علم اجتماع العلوم، ترجمة، سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008،ط1.

ميشيل تومبسون واخرون، نظرية الثقافة، ترجمة، علي سعيد الصاوي، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، عدد 223، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو 1997م.

نادر العساوي، مبادىء فلسفة الفهم ,أسس العلوم الإنسانية عند دالتاي، النت ، جوجل.

ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، جوجل.

يان سبورك، أي مستقبل لعلم الاجتماع؟ في سبيل البحث عن معنى وفهم العالم الاجتماعي، ترجمة، حسن منصور الحاج، دار كلمة والمؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ابو ظبي _بيروت 2009ط1

يمنى طريف الخولي ، فلسفة العلم في القرن العشرين ،الأصول – الحصاد – اللآفاق المستقبلية ، مجلة عالم المعرفة الكويتية العدد 264 ، ديسمبر 2000م.

يُمنى طريف الخولي, مشكلة العلوم الإنسانية: تقنينها وإمكانية حلها, دار الثقافة,القاهرة, 1990ط1.